الأنساق المخاتلة في كتاب بلاغات النساء لأحمد بن أبي طاهر بن طيفور

ندى عبد الأئمة غياض الخفاجي
وزارة التربية\ قسم اللغة العربية

ملخص

عندما يروم قارئاً ما بقراءة فاحصة لنصوص بلاغات النساء تُسبر له انساقاً مضمرةً متخفيةً يتمركز في حضورها ابعاد جمالية يتشكل من خلالها فضاءات نامية للرؤية ، يكون من خلالها تفكك المتوارى والمسكوتات عنه ، في النصوص لتظهر له ثيمةَ انساقٍ ناجعةٍ ، تتمحور حول كثير من الخطابات التي نجد في مقدمتها نسق الأنوثة الذي نراه هنا يظهر بإشكالٍ متعددة بين تضاغيف نصوص بلاغات النساء ، والذي ظهر على شكل صراع بين نسقين **الأول**: ظاهر وهو يومئ الى فوقية المرأة ومكانتها الثقافية والعلمية من خلال النصوص التي نراها داخل كتاب بلاغات النساء ، أما **الثاني** : وهو النسق المضمر الذي نرى خلفه الكثير من الانساق التي تشير الى دونية المرأة باعتبارها قيمة جسدية لاغير ، فالنسق الثقافي من منظور الغذامي له مضهران داخل النص ((ظاهر والآخر مضمر ، ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر ويكون ذلك في نصٍ واحد ...))[1] بعدها نرى نوع آخر من هذا النسق يربك الانساق التي تقول بدونية المرأة فهذا إن دل على شيء فإنه يدل على إنه لم يجزم احد بأن المرأة جسد فقط لا بل لها قيمة علمية وثقافية من خلال تعدد الاغراض والفنون في نصوصها التي جاء بها ابن طيفور.

كلمات مفتاحية : الأنساق المخاتلة ، بلاغات النساء ، أحمد بن أبي طاهر بن طيفور

The deceptive systems in the book of women's rhetoric by Ahmed bin Abi Tahir bin Tayfour

Nada Abdul-A'immah Ghayyadh Al-Khafaji
Ministry of Education\Department of Arabic Language

Summary

When a reader seeks to read carefully the texts of women's rhetoric, he will explore hidden implicit systems that center in their presence aesthetic dimensions through which developing spaces for vision are formed, through which the hidden and unspoken are dismantled in the texts to reveal to him the theme of effective systems, revolving around many discourses, at the forefront of which we find the system of femininity that we see here appearing in multiple forms among the duplications of women's rhetoric texts, which appeared in the form of a conflict between two systems, the first: apparent, which alludes to the superiority of women and their cultural and scientific status through the texts that we see in the book of women's rhetoric, while the second: which is the implicit system behind which we see many systems that indicate the inferiority of women as a physical value only, so the cultural system from a perspective Al-Ghadami has two manifestations within the text ((one is apparent and the other is implicit, and the implicit contradicts and abrogates the apparent, and this occurs in one text...)) ( ) After that, we see another type of this system that confuses the systems that say that women are inferior. If this indicates anything,

(1)- النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية ، عبدالله الغذامي ، المملكة المغربية الدار البيضاء ،المركز الثقافي العربي ، ط3 ، 2005 ، 77.

it indicates that no one has asserted that women are only bodies, but rather they have scientific and cultural value through the multiplicity of purposes and arts in their texts that Ibn Tayfur brought.

Keywords: Deceptive systems, women's rhetoric, Ahmad bin Abi Tahir bin Tayfur

المطلب الأول:الاختلاف الطبقي

المتفحص لنصوص بلاغات النساء يجدها نصوصاً ابداعية ذات حركة فاعلة ونشطة تجاوزت وقت انتاجها وظلت مشتغلة ومتفاعلة على مختلف الازمنة والعصور ، فحين اقدمت الباحثة على دراسة تلك النصوص وجدت هذا الانشغال حاضراً عندما رأت انساقاً مرةً ظاهرة ، والاخرى متخفية تظهر باشكال متعددة لتعطي دلالات مختلفة لأن تلك النصوص لا تقف عند قراءة واحدة تنتهي حدودها وابعادها النصية بل شملت الاتساع على مختلف الدلالات والانساق الثقافية والذي جاء من بينها نسق الاختلاف الذي كان حاضراً عند استقبال تلك النصوص وقراءتها .

فالاختلاف في النص ((هو ذلك النص الذي يؤسس لدلالات اشكالية تتفتح على امكانيات مطلقة من التأويل والتفسير فيتحفز الذهن القرائي ويستثيره ليتداخل النص ويتحاور معه في مصطرع تأملي يكتشف القارئ فيه أن النص شبكة دلالية متلاحمة من حيث البنية ومتفتحة من حيث إمكانيات الدلالة ، وبما انها كذلك فهي مادة الاختلاف ...))[2] بمعنى أن الدلالة في النص تتكأ على علاقات السياق التأريخية والتي ينتج عنه التركيب حتى يصل القارئ لمفهوم الاختلاف [3] عن طريق تحليل بنية المجتمع الذي يسمح لنا بفهم اسباب الاختلاف ويبين نسقه الداخلي من اجل الوصول الى الغاية المنشودة ، وهذه الظاهرة تتطلب فهم الأنا في علاقتها بالآخر، وبالغيرية وبالتالي ينطلق المجتمع من معيار الهوية الجنسية ليميز بين الرجل والمرأة فيواصل مساره فيثبت علامات الاختلاف في النص القرائي بين العبد والحر، والخاصة والعامة، والغني والفقير مثلاً ، او تظهر صور آخرى لهذا الاختلاف ، مثل الاختلاف الديني أوالعرفي ، أوالمذهبي ، أواللوني والتي تقع جميعها ضمن طبقة مخصصة يسمى الاختلاف الطبقي [4] .

ففي تضاعيف نصوص بلاغات النساء عدداً لابأس به من الصفحات والاوراق التي ترصد الاختلاف الثقافي انطلاقاً من وعي المصنف باختياره للنصوص ، ومن ثم الى تأثير هذا النسق في ذات المصنف ، فجاء هذا النسق بعنوان (الاختلاف الطبقي) محاولين فيه أن نبرز من خلاله الغاية من هذا الاختلاف وما يقبع خلفه من انساقاً مضمرة تفسر ظاهرة ما، او غاية تضمر في نفس المصنف .

لا يخلو مجتمع من اختلاف طبقي سواء كان في الجانب الديني أو السياسي أو الثقافي ، لأن المجتمعات عادة ما تتعرض الى تغيرات قد تسببها السياسات الاقتصادية او الاجتماعية، والتي بدورها تنعكس على البناء الطبقي للمجتمعات فيظهر الاختلاف والتنوع بين الطبقات على اساس التفاوت او الفوارق الطبقية .

لذا فالاختلاف الطبقي موجود في كل مكان وزمان فهذه الظاهرة هي كامنة أينما توجهنا نلمس آثارها ونحس بها لأن المجتمع البشري متكون من طبقات تتفاوت وتتمايز في اساليب الحياة أو علاقات الوجاهة على اساس المنزلة أو الدرجة في المجتمع نفسه ، بعضها ارفع من بعض أو أدنى ، فنرى القوي ونرى في جانبه الآخر الضعيف ، والسيد يجابهه العبد ، فالمؤلف احس بحجم هذا الاختلاف لينقل الصورة الاجتماعية للمجتمع وما يتركه هذا الاختلاف من اثار جانبية على طبيعة الذات لأن المجتمعات ليست على

([2])- المشاكلة والاختلاف - قراءة في النظرية النقدية العربية ، عبدالله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1994: 16.

([3])- ينظر: م ن : 46- 47.

([4])- ينظر: الاختلاف في الثقافة العربية – دراسة جندرية ، أمل قرامي : 10 ، 12.

نسق واحد بل متفاوتة [5]، وهذا التفاوت اخذ اشكالاً متعددة في تضاعيف نصوص بلاغات النساء ومن بينها كلام عائشة عندما ذكرت في حديثها ((مكارم الاخلاق عشر تكون في العبد دون سيده وفي الخامل دون المذكور وفي المسود دون السيد، صدق الحديث ، أداء الامانة ، والصدق والصبر في البأس ، والتذمم للصاحب ، والتذمم للجار، والاعطاء في النائبة ، وإطعام المسكين ، والرفق بالمملوك ، وبرالوالدين ...))[6] تذكر السيدة عائشة الصفات الجليلة التي يتحلى بها العبد المملوك دون السيد المالك ، منها الصدق والامانة ... ، وعبرت عن ذلك بالاختلاف الطبقي المتمثل بالعبيد والسادة فهذا الحديث من التقابل اللفظي الظاهري (العبد ، السيد) وسيلة النسق المضمر الذي يخبئه ابن طيفور اذ ارادت التعبير عنه ونقده لأنه حقيقة مجتمعية سيئة ، فالملاحظ أن ظاهر الكلام اختلاف طبقات مجتمعية ، إلا أن النسق المضمر لكلاهما أن النفس حين تشعر بأنها علت في الدنيا فقدت كثيراً مما يجب أن تكون عليه من قيم ، وطغت ولسبب ما عليها من مبادئ ، خلافاً للنفس التي لاتملك سوى رضا الله فإن شعور الايمان حين يملئ القلب ويشغله عما سواه ، فترى السادة والحكام قد عظمت باعينهم الصغائر وتزاحمت في قلوبهم المشاعر من انانية وحب المال سببها حطام الدنيا والتفاخر بها ، اما العبد الفقير فهو فقير لها غني بغيرها ، وايضا في موضع اخر نرى هذا الاختلاف واضحاً في قول امرأة لابنها : (البحر المنسرح)

لا تعاد الفقيرَ، علّك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه[7]

ففي هذا البيت نرى الفارق الطبقي واضحاً بين الفقير الذي تقصده (العبد) والغني هو (السيد)، له اثراً على الذات فهذه المرأة تستخدم اسلوب التحذير نافية لوجود سلطة للطبقة المالكة وهم (الاغنياء) لأن يوماً ما سوف يكون الفقير بنفس الطبقة ذات جاه ومنزلة على الفئة ذات الطبقة (الغنية) فهي تحذره وتقول له اياك وان تظلم فقيراً فربما ياتي اليوم تكن انت بمكانه وتركع له طالباً منه ان يقضي حاجتك ، فلا تكن لهم نداً بل كن مع مايطلبون واقض حوائجهم ، فنرى فهذا التاثير ناتجاً من الاختلاف بين الطبقات وله اثاراً في نفس المتكلم .

فتعددت صور العبد المملوك لكنها تاتي بمعنى واحد ومن بين تلك الصور وصفه (بالكريم) حينما قالت حبى المدنية بعدما سألوها ((مالجرح الذي لا يندمل ؟ قالت حاجة الكريم الى اللئيم ...))[8] فهنا عبرت بهذه الصورة عن مدى عمق تأثر هذا الفارق الطبقي في ذاتها فالكريم تقصد به هنا الفقير ومن غيره سوى يحتاج اللئيم حتى تعبر عنه بهذه الكلمات ذات الصياغة البلاغية العالية لتعطي صفة اللؤم الى الآخر وهو الغني ذات السلطة ، فتعبيرها يعطي مدلولاً واضحاً وهو أن حاجة الكريم مؤلمة جداً لنفسه ويأباها لكنه يكون مضطراً للآخر لإمر لا مناص منه، لإنه لو لم يكن ذا جاه لم يأتي اليه، وتعبر عنه حبى المدنية بهذه الصورة السوداوية المحزنة التي تجمع كل ما يختبأ خلف افواهم لكنهم لا يستطيعون النطق بها فجاءت بهذا البيت فكانت اللسان المعبرعن مكنونهم الخفي والمضمر ، وأيضاً نرى شكلا اخر من هذا النسق يقع تحت مظلة العبودية وهو تشظي ظاهرة الإماء في ذلك العصر كما في الموضع ((إنما حظوظ الاماء لسوء خلائق النساء الحرائر))[9] فهذا يعني إن ماتعانيه الأمة من وضع سوداوي في المعيشة سببه النساء الحرائر الغير مملوكات بحكم أن الإماء هي من الجواري المملوكة التي تدرج ضمن قائمة العبيد فتقع على عاتقها خدمة الطبقة المالكة .

([5])-ينظر : الطبقات الاجتماعية ، يانيك لوميل ، تر: جورجيت الحداد ، دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي ليبيا ، ط1 \ 2008 :113، ينظر : مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، جهاد شاهر الجالي ، كلية الاداب جامعة الاردن قسم اللغة العربية ،1985 : 7 و9. (رسالة ماجستير)

([6])- بلاغات النساء : 29.

([7])- م ن : 58.

([8]) بلاغات النساء: 91

([9])- م ن : 28

وعليه فالغاية من تفصيل القول في بعض الجوانب الرئيسة من النص هو من اجل الوصول الى الغاية التي ينشدها المصنف (ابن طيفور) من نقله لهكذا نصوص فيها الاختلاف واضحاً، وما تركت في نفسه اثراً ،ظاهراً يؤول الى مضمرات تقبع خلف كل معنى من هذه النصوص ، فالسؤال يتمركز هنا هل لابن طيفور غاية تقصد عندما نقل هذه الخطاب أم أن البلاغة العالية فيها هيمنت عليه وقام بنقلها ؟

فالباحثة ترى ان الجواب على هذا السؤال لعل ابن طيفور اراد ان يومئ الى شيء بنقله لهكذا نصوص ، وهو تأثير هذه الفئة ذات الوجود الطبقي المعدوم في العصر الذي كان يعيش فيه ، إذ قام بنقل الصورة الحية للفئة التي تعاني من الانعدام الحياتي في الوجود على لسان امرأة يختصر طريق الظلم في قولها ، لإنه لا يستطيع اضهار مايضمره لسانه ضد الطبقة الحاكمة في ذلك العصر ، لانه كان من الطبقة الوسطى المقربة للفئة الحاكمة كما اشرنا في الوريقات السابقة ، فحفاظاً على مركزه المعيشي نقل هذه النصوص على لسان الغير ، فالعصر العباسي في زمن ابن طيفور كانت العبودية في اوسع انتشارها نتيجة للصراع من اجل البقاء لتوفير متطلبات الحياة من جانب ، ومن جانب آخر فساد الطبقة الحاكمة التي انصرفت بالملذات واللهو والترف والمتعة تاركة ماتعيشه هذه الفئة ، فسادَ النظام الطبقي في ذلك العصر نتيجة لاضطراب الاوضاع السياسية والاقتصادية فأصبح المجتمع على ثلاثة طبقات ((كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ... وطبقة وسطى تشمل على رجال الجيش وموضفي الدواووين و الصناع والتجار الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغير والخدم الرقيق ...))[10] ، فالطبقة الأولى هي العليا والتي يندرج خلف مضلتها الخليفة ورجالاته من امراء وقواد ووزراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والكتاب اذ كانوا منعمين مترفين باللهو، والملذات والشرب من جانب ، ومن جانب آخر صرف الاموال في تشييد القصور التي تكون مكلفة في فخامة بنائها واتساع مساحتها فكانت تحفل هذه القصور بمجالس الغناء والطرب والتي كان يحضرها كبار الخلافة العباسية ، فكانت الأموال تصرف على ابسط الامور من بينها مواكب الخلفاء في ايام الاعياد والمناسبات اذا كان الخلافاء يتمنطقون بأبهى اللباس المرصع بالجواهر الثمينة ، فرجال الدولة ومن لف لفهم كانوا يتمركزون في قمة الهرم المجتمعي من حيث النفوذ المادي والمعنوي [11] فهذا كان نتيجة السياسات التي يتبعها الخلافاء وعلى رأسهم المتوكل، فكانت فترة حكمه تتميز بالإنحلال الاخلاقي والفساد على مختلف الأصعدة والحرمان لبعض الطبقات فكان همه الوحيد كيف يقضي الوقت في ملذاته وشرب الخمر تاركاً خلفه الكثير من الناس ذوات الطبقة المعدومة ، فكانت الأموال تجبى لهم حتى انه كان سريره مرصع بالذهب ، وبالاضافة إلى أنه قام باقصاء عمال الطبقة المعدومة من وظائفهم فالثروات كانت موزعة توزيعاً جائراً بين طبقات المجتمع فرجال الدولة من ذوي الجاه والسلطان في المجتمع يمتلكون الملايين ويسرفونها في المآدب والملاهي ، بينما كان الكثير من الناس لا يجدون ما ينفقوه وما لا يعيشون فيه بسبب الحرمان المعيشي [12] وكأنما كُتب عليهم أن يكدحوا ليملؤا حياة الطبقة الحاكمة ورجال الدولة بأسباب النعيم ، أما هم فعليهم أن يتجرعوا غصص الشقاء والبؤس وأن يتحملوا من اعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق فكل الذي يعيشونه كان نتيجة لطغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا هذه الطبقة حقوقها وطوقوها بالاستعباد والاستبداد والعنف ليترفوا انفسهم وبطانتهم باموال الناس وموارداها التي كانت من حقوقهم [13] ، لياتي هذا النسق الذي اضمره ابن

([10])- تاريخ الادب العربي ، شوقي ضيف : 342

([11])- ينظر : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، سيد اميري علي ، تر: رياض رأفت ، مطبعة لجنة التاليف والنشر والترجمة في القاهرة ، 1938: 248.

([12])- ينظر :الانباء في مجالس الخلفاء ، محمد بن علي ابن العمراني ، تح : قاسم السامرائي ، دار الافاق القاهرة ، ط 1 ، 2001 :118 ، ينظر : الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، تح : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ب د ط ت ، 6 \ 245.

([13])- ينظر : تاريخ الادب العربي ، الاعصر العباسية ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط 1 ، 1981 ، 2 \ 527.

طيفور ليظهره من خلال تلك النصوص الادبية التي كانت تحمل دلالات بلاغية عالية لتصف حالهم وتعلن وقوفها مع الطبقة المملوكة (العبيد).

المطلب الثاني : النسق المخاتل

يعد مصطلح المخاتلة من المصطلحات الادبية ذات الوجود النادر في الدراسات القديمة و الحديثة على مختلف الأزمنة والعصور، وجاء ذلك بسبب الميول والرغبات من قبل الأدباء والكتاب على المصطلحات الاجرائية والتنظيرية ذات الوجود المسبق والدارج في المجتمع حتى يستطيع من أن يتماشى مع سايكولوجية الفرد ، فالظهور بمصطلح جديد قد يسبب نوعاً من التداخل بين المصطلحات من قبل المتلقي ، لذا اقدمت الباحثة في هذا المبحث لتسميته بهذا المصطلح حتى يتماشى مع نوع الدراسة ذات الوجود الحديث في الدراسات النقدية من جانب ، ومن جانب آخر تلائم المصطلح مع المعنى المضمر الذي ظهر في نصوص بلاغات النساء ، فقبل البدأ بتفاصيل هذا النسق والغاية التي تكمن وراء اختيار هذا النسق من قبل ابن طيفور لابد لنا من التعرف عليه في الجانبين اللغوي والاصطلاحي .

أ- في اللغة : يعرفه صاحب لسان العرب أن الفعل خاتل من ((ختل: الخَتْل: تَخادُعٌ عَنْ غَفْلَةٍ. خَتَلَهُ يَخْتِلُهُ ويَخْتِلُهُ خَتْلًا وخَتَلاناً وخَاتَلَهُ: خَدَعه عَنْ غَفْلة والتَّخَاتُلُ: التَّخادُع. أَبو مَنْصُورٍ: يُقَالُ لِلصَّائِدِ إِذا اسْتَتَرَ بِشَيْءٍ لِيَرْمِيَ الصَّيْدَ دَرَى وخَتَلَ الصَّيْدَ. والمُخاتَلة: مَشْيُ الصَّيَّادِ قَلِيلًا قَلِيلًا فِي خُفْيَة لِئَلَّا يَسْمَعَ الصيدُ حِسَّه، ثُمَّ جُعل مَثَلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وُرِّي بِغَيْرِهِ وسُتِر عَلَى صَاحِبِهِ؛ والخَتْل أَي الخِدَاع))[14]، ((و خَتْلاً بالفتح وخَتَلَاناً مُحَرَّكة : خَدَعَهُ عن عَقْلِه .خَتَلَ الذِّئبُ لصَّيدَ خَتْلاً: تَخَفَّى له وكُلُّ خادِعٍ فهو خاتِلٌ وخَتُولٌ كصَبُور))[15] ثم جُعلت المخاتلة
مثلاً لكل شَيء وُري به وسُتر على صاحبه ، خادَعَهُ وخاتَلَه وتَخاتَلوا تَخادَعوا فيما بينهم ، واخْتَتَلَ تَسَمَّعَ لِسِرّ القومِ خفيةً[16].

وعليه نرى أن المخاتلة عند اصحاب اللغة هي التستر والخفاء والظهور بين الحين والاخر على غفلة لإمر قد يكون فيه مخادعة من اجل الوصول الى تحقيق غاية ما ، وهذا المصطلح يعد من اكثر المفردات التي تكون فيها صفات المراوغة والخداع واضحة.

ب -أما في الاصطلاح : فأنها تعني نوع من التمويه والغموض الخفي والخروج على السياق العام (المتن) لمصلحة الهامش لتصبح حالة من الصراع بين الهامش والمتن اي بين الثقافة المهيمنة والمقموعة لتحاول أن تنتصر لطرف معين [17] كان يبغيه الكاتب أو المصنف .

فظهر هذا النسق بشكل مفاجيء إذ أخل بالنظام النسقي العام ، الذي صرح به ابن طيفور في خطبة بلاغات النساء إذ قال ((هذا كتاب بلاغات النساء ، وجواباتهن ، وطرائف كلامهن ، وملح نوادرهن ، وأخبار ذوات الرأي منهن ، على حسب ما بلغته الطاقة ، واقتضته الرواية ، واقتصرت عليه النهاية ، مع ما جمعنا من أشعارهن في كل فن مما وجدناه يجاوز كثيرا من بلاغات الرجال المحسنين ، والشعراء المختارين ، وبالله ثقتنا وعليه توكلنا))[18] فبهذا التصريح يذهب ذهن المتلقي إلى أن هذا الكتاب يحمل نصوص أنثوية خالصة مطابقة لماجاء في تصريحه ، فعند التفتيش بين تضاعيف هذا الكتاب نجد هناك عدداً لابأس به من الاوراق التي تحمل نسق ذكوري واضح لكنه ليس بالعدد المساوي لنصوص النساء ،

([14])- لسان العرب : 11 \ 199
([15])- تاج العروس : 1 \ 7019
(3)- ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس ، **ابو بكر الانباري ، تح : حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1 ، 1992 ، 1 \ 36** ، ينظر : القاموس المحيط : الفيروز ابادي : 1\1281

([17])- ينظر : النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية ، الغذامي : 225
([18])- بلاغات النساء : 19

فبهذه المخاتلة ترى الباحثة أن ابن طيفور كَسَرَ النمطية النسقية العامة للكتاب ، فالتدقيق في هذه النصوص الذكورية المخاتلة يكشف لنا وراءها لعبة اخطر من أن ابن طيفور ذكر هذه النصوص من أجل التمايز الثقافي بين الأنثى والرجل حتى تصدق رؤياه ونضرته العلمية بما قاله (نساء بليغات) وإنهن يُجارينَ الكثير من الرجال ، لا بل من اجل التحايل على الخطاب الرسمي ، والتظاهر بأن الأمر لايعدوا أن يكون لعبة اسلوبية هدفها المقارنة الثقافية بين الطرفين بل جاء هذا الأسلوب اعمق من ذلك فنحن هنا أمام ظاهرة تسمى التخاتل حينما يُمزق المتن ويخل بنسقه العام من أجل الهامش ، فهذه الحالة نجدها ظاهرة ثقافية وفريدة من نوعها لأننا امام صراع فعلي لحال الخطاب الذي يتصارع بين الأمرين الظاهر بنسقه العام والمضمر المؤدلج الذي فرض على المصنف أن يخضع له ، فهذا الصراع بين المتن والهامش تتولاه الثقافة بحضور انساقها المضمرة المتضاربة بين المتن والهامش ، ومن هذه النصوص والتي مايقارب عددها ستون نصاً من بينها :

أ- **بين العجاج ودهنا بنت مسحل** **(الرجز)**

قد زعمت دهنا وظن مسحـــلُ أن الأمير بالقضاء يعجـــــــلُ
عن كسلالي والحصان يكسل عن الضراب وهو ظريف هيكلُ
فقالت الدهنا : (الرجز)
والله لو لا كرمي وخيـــــري وخشيتي عقوبة الأمـــــــير
ورهبة الجلواز والترتـــــــور لجلتُ عن شيخ بني البعيـــر
جولَ قلوص صعبة عسير تضرب حنوي قتب مأسور[19]

ب- وأيضاً في موضع اخر أنشد الزبير لأمرأة : (البحر الطويل)

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى بأرعن ركناه صفاً وحديـد
تقطر من وجد وذاب وحديـــــــد وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلـــــــة أوت واحيا إن ذا لشديـــــد [20]

ت- وفي نص اخر للفرزدق والدحداحة : (البحر الطويل)

ث- قتلت قتيلاً لم يرَ الناس أقلبه إذا تموتين مســـــــوراً
حملت عليه حمله وغادرته فوق الحشايا مكوراً
ترى جرحه من بعد ما قد طعنته يفوح يلنوجاً ومسكاً وعنـــبرا[21]

فهذه النصوص هي جزء بسيط لما ذكره ابن طيفور من نصوص ذكورية ، فقد اخترنا تلك النصوص ليس على اساس وجود شيء يمايزها عن غيرها ، بل من اجل توضيح كيف خاتل المصنف في هذه المواضع ؟.

([19])- بلاغات النساء : 204
([20])- م ن : 246
([21])- م ن : 247

وعليه فهذه المخاتلة التي حصلت على مستوى النصوص ما هي إلا حيلة وخداع نلحظ اثارها الخفية التي يحيكها نسقاً مضمراً والتي حاولت ان تزعزع النصوص الأصل ، لإجل الدخيل (الهامش) فالامتوقع نجده هنا اسهم في احداث الدهشة وجعل القارئ يتأمل ليكتشف ما خلفها من انساق مضمرة من خلال الرجوع الى تلك الثقافة التي انشدت فيها مواضع النصوص .

فالجواب الأنسب لهذه التساؤلات يندرج تحت أمرين :

الأول : إذا قلنا أن ابن طيفور عندما ذكر هذه النصوص (الذكورية) من اجل التمايز الثقافي بين الطرفين ليبين ظاهرياً للقارئ صورة مفترضة تحيك واقع اجتماعي يفترض عليه نقل هذه المواضع من اجل إبراز صورة المرأة وثقافتها العالية مقارنةً بالآخر (الرجل) وهذا نسق ظاهر أومئ به حتى يثبت أن ماجاء به من أدب نسائي لا يشوبه شائب من حيث البلاغة العالية ، والثقافة المتمركزة حتى لا يكون عرضة للنقد من اصحاب المجال الادبي والعلمي فهذا الرأي قد يكون ضعيفاً.

ثانياً: وهو الأغلب والاكثر ترجيحاً أن المصنف (ابن طيفور) حينما نقل هذه النصوص وخاتلها بين ثنايا نصوص الكتاب من نثر وشعر جاء على اساس الثقافة المهيمنة والسلطة الحاكمة ، التي لعبت دوراً بارزاً في تشجيع الحركة العلمية من تأليف وتصنيف مراقب من خلالهم، والمرأة في ذلك العصر كانت كجارية وخادمة ذات قيمة جسدية لاغير يقضي اغلب حكام السلطة وحاشيتهم باللهو والتمتع مع النساء، وكيف لابن طيفور أن يفرد لها أدب خاص بها .

فالسلطة في ذلك الوقت هي التي تتحكم في الانتاج الثقافي ، وخاصة الأدبي لما له من تأثير على الجانب السياسي لتقوية الحكم فنرى غرامشي يتحدث عن فاعلية سيطرة السلطة من الناحية الثقافية إذ يقول : ((أن الجماعات والطبقات الحاكمة تمارس السلطة بفاعلية أكثر من خلال القيادة الثقافية(بكل من معنييها العقلي والأخلاقي)، حتى وإن كانت هذه مفروضة بالقسر، وبهذا الفعل تتعرف وتعمل مع طرق فهم الجماعات التابعة وقيمها وكذلك مع الإيديولوجيات المهيمنة، وتتحدى القوى الصاعدة أو الثورية، هذه السيطرة القائمة بمحاولة تأسيس مستوطنة سيطرة (قومية شعبية) جديدة خاصة بها))[22] فهي المرجع الأعلى المسلم إليها بالنفوذ والتي لها القدرة على فرض سيطرتها ، فالمجتمع يعترف لها بالقيادة والفصل وبقدرتها التي من خلالها انزال اقصى العقوبات ويجب على الجميع احترامها والالتزام بقراراتها فهي تمثل الدولة ، والدولة هي السلطة التي لاتعلوها في الكيان السياسي ، فهي تمتلك صفة السيادة لإنها مصدر القانون ولها الحق في إمتلاك وسائل الإكراه واستخدام القوة لتطبقها فوق الجميع ، فعرفت السياسة بأنها علم الدولة ، فالسلطة العباسية أشلت حركة الكاتب أو الاديب من خلال الرقابة التي تتمتع بها وقد تكون هذه الرقابة ديوانية تعنى بهذا الشيء ، فهو مايريد قولة يختلف عما تريده السلطة في ذلك الوقت ، فينصدم ذاته ويصبح الإخلال واضحاً لأن التوازن البشري قد تم الاخلال به فالانسان مهما يمكن لا يستطيع قبول حالة الضعف والعجز الكامل بدون المحاولة من استدراك طاقاته وقدراته على العمل فيلجأ الى الجماعة التي تتمتع بالقوة ويحاول التماشي معهم ، فمن خلال مشاركته الرمزية في حياة اشخاص اخرين يتوهم بأنه يفعل ويؤثر بينما في الواقع يخضع فقط ويصبح جزءاً من أولئك الذين يفعلون ، فهو هنا يتجاوز وضعه كمخلوق رمي في عالم [23] فهذه الامور أثرت باختيار صاحب بلاغات النساء لأنه عاش في عصر وهو (العباسي الثاني) ليس فيه شورى بل كانت جميع مقاليد الحكم بيد الخليفة فالجميع تحت سلطة حكم الخليفة يحكم برأيه بإستبداد ونهب أموال ومصادرة الحريات وارغام الناس على ما

([22]) موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت: 215/3.

([23])-ينظر : جوهر الإنسان، إيريش فروم، ترجمة: سلام خير بك، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، ط1، 2011: 34.

يكرهون [24] **لذا مهمة ابن طيفور في توجيه هذا الخطاب هي ((** أن يقول ما هو قائم، إلا أنه لن يكون شيئاً آخر سوى ما يقوله))[25] **وفقاً لما يتطلبه الطابع العام في المجتمع الذي يعيش فيه.**

فهذه الظاهرة يطلق عليها بالحركية الدقيقة للتشكل الثقافي ، فيبرز من خلالها تعبيرات نموذجية وفق إرادة النسق المهيمن لا بحسب إرادة المتكلم أو وعي المؤلف، وتتميز بكونها تبدو في الظاهر والمباشر من إبداع الفرد المبدع وحده[26] إلا أن المفتش بحياة المصنف يجد تلك الثقافة لها الدور الابرز في انتاج هذا الخطاب .

ولكي يكون للشاعر المنتمي موضع رضا من جانب السلطة، عليه أن يسعى لإيجاد أنماط سلوكية ثقافية يظهر فيها طابعه الانتمائي المؤيد الذي يدخل في ضمن إطار الإيديولوجية العبَّاسية بوصفها بنية اجتماعية مهيمنة، ومن هذا وأمثاله يجري تنميط الثقافة يقول بوردو ((أن البنى الاجتماعية تنتج ملاذاً، مجموعة من الميول للأداء والتفكير والإدراك والشعور بطرائق دون غيرها، وبأساليب دارجة في الكلام والحركة، كما أنها تأتي بأنماط لا واعية في معرفة العالم، وتكوينه وتصوره وكل هذه لا تتحقق من خلال ما نألفه ... وانما من خلال الاختلاط الاجتماعي الاساس ...))[27]

وعليه اصبح الاحساس بالازمة مسيطر على خطاب الاديب وذلك تماشياً مع النسق العام للخطاب السلطوي المهيمن ، ووجه الازمة ، ان مايشهده العصر أثر الانقلاب السياسي العباسي من تحولات وتحديات تطال الايديولوجيات والمفاهيم والقيم والنظم والعادات والمواقف والخيارات ، وكل ما يتعلق بشكل الوعي ونمط التفكير ، بقدر ما تطال نظام المعنى وعلاقات القوة ، وكل ما يتصل بممارسة الفاعلية والحضور عبر انتاج المعرفة والسلطة والايديولوجيا . اذ أصبح الشعراء يشعرون باهتزاز ما استقر في وعيهم من الثوابت والاصول والافكار ، او بتغير ما ألفوه من نماذج الرؤية ومبادئ التقييم وانساق الخطاب واستهلاكه ، حتى اصبح الخطاب الثقافي هو خطاب هذه الازمة الثقافية وهذا الوعي المأزوم[28].

المصادر والمراجع

1. الاختام الاصولية والشعائر التقدمية ، علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2001
2. الاختلاف في الثقافة العربية – دراسة جندرية ، أمل قرامي
3. تاريخ الادب العربي ، الاعصر العباسية ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط
4. جوهر الإنسان، إيريش فروم، ترجمة: سلام خير بك، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، ط1، 2011

([24])- ينظر : الطاغية والطغيان- في تاريخ العراق القديم والحديث، شامل عبد القادر، مكتبة عدنان، بغداد، ط1، 2012: 117.

([25]) الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ت: 158.

([26]) ينظر: عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، مجموعة مؤلفين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003: 144.

([27]) النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005: 22.

([28])- ينظر: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية ، علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2001 : 73 – 74 .

5. الزاهر في معاني كلمات الناس ، ابو بكر الانباري ، تح : حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1 ، 1992

6. الطاغية والطغيان- في تاريخ العراق القديم والحديث، شامل عبد القادر، مكتبة عدنان، بغداد، ط1، 2012:
7. الطبقات الاجتماعية ، يانيك لوميل ، تر: جورجيت الحداد ، دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي ليبيا ، ط1 \ 2008 :
8. عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، مجموعة مؤلفين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003: 144.
9. الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، تح : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ب د ط ت ،
10. الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ت:
11. لانباء في مجالس الخلفاء ، محمد بن علي ابن العمراني ، تح : قاسم السامرائي ، دار الافاق القاهرة ، ط 1 ، 2001
12. مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، سيد اميري علي ، تر: رياض رأفت ، مطبعة لجنة التاليف والنشر والترجمة في القاهرة ، 1938
13. المشاكلة والاختلاف - قراءة في النظرية النقدية العربية ، عبدالله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1994:
14. مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، جهاد شاهر الجالي ، كلية الاداب جامعة الاردن قسم اللغة العربية ،1985 : 7 و9. (رسالة ماجستير)
15. موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت: 215/3.
16. النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1،
17. النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية ، الغذامي
18. النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية ، عبدالله الغذامي ، المملكة المغربية الدار البيضاء ،المركز الثقافي العربي ، ط3 ، 2005